

مفهوم القوّة وتحليل علاقات السُّلطة في الفكر العربي والغربي
قراءةٌ في أفكار ابن خلدون وجيمس سكوت
مادّةٌ إشكاليات وقضايا كبرى في النظرية السياسية

إعداد: محمد جمال علي

يُمثل مفهوم «القوة»، مفهومًا مركزيًا في العلوم الاجتماعية بشكل عام وفي العلوم السياسية بشكل خاص؛ إذ إن العلاقات والتفاعلات الاجتماعية والسياسية بين البشر في المجتمعات الإنسانية تعتمد بشكل كبير على ممارسات القوة، وتتحدد نتائجها وتداعياتها بالتفاوت بين الأفراد والمجموعات في امتلاك القوة والقدرة على ممارستها؛ ومن ثم فإن تفكيك هذا المفهوم وتحليل التعريفات المتعددة والتجليات المختلفة له في الإسهامات الفكرية المتنوعة يساعد على المزيد من التعمق في فهم الظواهر الاجتماعية والسياسية في المجتمعات الإنسانية.

وتسعى هذه الدراسة إلى تقديم تحليل نقدي لإسهاميين أساسيين في الثقافتين العربية والغربية اجتهدا في تحديد مفهوم القوة ومظاهرها وتجلياتها، وهما أطروحتي أستاذ العلوم السياسية الأمريكي جيمس سكوت، والمفكر العربي التراثي الشهير عبدالرحمن بن خلدون، ولهذا الاختيار أسباب بعضها ثقافي وبعضها تاريخي وبعضها يتعلق بما طرحه كلا المفكرين.

أما الأسباب الثقافية فتتمثل في أن التحليل النقدي لمفهوم ما إنما يستهدف بالأساس الوصول لأكبر قدر من التحدد والاتفاق حول المفهوم بين المفكرين والاتجاهات الفكرية المختلفة، وإزالة ما لحق بالمفهوم من غموض وخلافات على مر تاريخه؛ بغية أن ينعكس ذلك على الواقع العملي الذي تتراجع فيه الصراعات والخلافات بتراجع الخلاف حول المفاهيم؛ حيث يدعم الاتفاق في الحياة السياسية تعزيز الاتفاق حول المفاهيم ومعانيها؛ ومن ثم فإن الاقتصار على دراسة هذا المفهوم وفق ما طُرح في إطار ثقافي واحد يُخل بهذه الغاية؛ وإنما ينبغي توسيع نطاق البحث ليشمل دراسة إسهامات متعددة تنتمي لثقافات وخلفيات حضارية متباينة.

وأما الأسباب التاريخية فتتمثل في انتماء أحدهما إلى حقبة تاريخية قديمة تنتمي إلى العصور الوسطى، وانتماء الآخر إلى العالم المعاصر، فالعصور الوسطى تُمثل الحقبة التي فضلنا الاعتماد عليها في دراسة مفهوم القوة وتجلياته في الثقافة العربية؛ لكون المصادر الأساسية للإنتاج الفكري العربي في هذه الحقبة تمثلت في الثقافة العربية الخالصة خلافًا للإنتاج الفكري العربي المعاصر

الذي يتأثر بشكل متزايد بالإنتاج الفكري في الثقافات الأخرى والذي ربما لا يُعبر بالضرورة عن الحالة الثقافية الحقيقية في المجتمعات العربية.

وأما اختيار جيمس سكوت كنموذج لتناول مفهوم القوة في الثقافة الغربية المعاصرة فلأنه يُمثل أحد أحدث الاجتهادات في الفكر السياسي الغربي المعاصر والذي يبدأ منذ عصر النهضة في أوروبا وأنتج مشروعًا ثقافيًا وتنويريًا ضخماً ما يزال -وتوابعه- متحكماً في الحالة الثقافية في العالم المعاصر ككل.

ولهذا الامتداد التاريخي للدراسة أهمية أخرى في تحليل المفاهيم؛ إذ إن استهداف دراسة الاستخدامات المختلفة لمفهوم ما وإزالة ما يعلق به من غموض وخلافات لا يستلزم فقط الالتزام بالتنوع الثقافي في تناول المفهوم، ولكن اختلاف الحقب الزمنية أيضاً من المهم أن يؤخذ في الاعتبار لتحقيق الغاية المتمثلة في إزالة الغموض والوصول لأكبر قدر من التحديد في تعريف المفاهيم المهمة والمؤثرة في المجتمعات الإنسانية.

كما أن إسهامات كل من ابن خلدون وجيمس سكوت تحمل أوجهًا للمقارنة وأشكالاً من التقارب تدفع الباحث نحو التعمق في دراستها وبيانها؛ فكما اهتم ابن خلدون بدراسة البداوة ومجتمعاتها والقبيلة البدوية وتشكلها وانتقالها من البداوة إلى الحضارة، اهتم سكوت بدراسة المجتمعات الريفية والمجتمعات اللادولتية وأنماط تمرداتها على السلطات الحضرية التي تُخضعها لحكمها.

ومن هنا تنطلق الدراسة من سؤال بحثي رئيسي هو: ما هي تجليات مفهوم القوة في تحليل كل من ابن خلدون، وجيمس سكوت لعلاقات القوة داخل المجتمع؟

ويتفرع عن هذا السؤال مجموعة من الأسئلة الفرعية، وهي:

- ما هي التأثيرات الثقافية في تحليل كلا المفكرين لظاهرة القوة؟
- ما مدى مركزية مفهوم القوة في تحليل كلا المفكرين لعلاقات القوة داخل المجتمع؟

● ما هي أبرز الانتقادات الموجهة لإسهامات كلا المفكرين؟

وتستخدم الدراسة أسلوب التحليل النقدي للمفاهيم؛ الذي يبدأ باستعراض المعنى اللغوي للمفهوم في اللغتين العربية واللاتينية، ثم استعراض أبرز المصادر التي اعتمد عليها تحليل المفهوم في الفكر العربي والفكر الغربي، يتبعه تناول البعد الثقافي للمفهوم وأبرز أنماط وملامح تناوله في الثقافتين العربية والغربية، ثم استعراض خريطة المفاهيم المرتبطة بالمفهوم المركزي ترادفًا أو مناظرة أو تناقضًا أو تفرعًا عنه في الفكرين العربي والغربي، يليه استعراض تراتبية هذه المفاهيم بالنسبة إلى المفهوم محل الاهتمام الرئيسي للدراسة، ثم استعراض التجليات المختلفة للمفهوم على المستويات السياسية والفكرية والأيدولوجية في الفكر الثقافة العربية والغربية، وأخيرًا تقييم المفهوم في الثقافتين من حيث مدى ثرائه وامتداده وشموله لغيره من القيم والمفاهيم وفاعليته السياسية والاجتماعية عبر التاريخ.¹

ويستلزم هذا الأسلوب القراءة في النصوص الأصلية للمفكرين الذين تتناول الدراسة أفكارهم بالتحليل، ومن ثم فإن المصادر الرئيسية لهذا البحث تتمثل في نصين أصليين لابن خلدون وجيمس سكوت، حيث تعتمد الدراسة في قراءتها لفكر ابن خلدون على كتابه العمدة «المقدمة» أو مقدمة ابن خلدون، بينما تعتمد في قراءتها لفكر جيمس سكوت على كتابه Domination and the arts of resistance والمترجم إلى العربية بعنوان «المقاومة بالحيلة .. كيف يهمس المحكومون من وراء ظهر الحكام».

كما تستعين الدراسة بكتابات أخرى من النصوص الأصلية لكلا المفكرين ولكن بشكل ثانوي فحسب؛ ففيما يتعلق بفكر ابن خلدون تستعين الدراسة بنصوص مثل «رحلة ابن خلدون»، وهي أشبه بالمذكرات الشخصية التي كتبها ابن خلدون في رحلاته وأسفاره، و«الخبر عن دولة التتر.. تاريخ المغول من كتاب العبر»، وهو أحد مجلدات كتابه الكبير المعروف بكتاب العبر والذي تُعد

¹ وهو اقتراب تحليلي قدمه أستاذ النظرية السياسية بجامعة القاهرة مصطفى كامل السيد في محاضراته لطلاب الدكتوراة بقسم العلوم السياسية بالكلية في عام 2021.

«مقدمة ابن خلدون» المجلد الأول منه، وكذلك كتاب «ابن خلدون ورسائله للقضاة»، وهو تحقيق لنص أصلي لابن خلدون عنوانه «مُزيل الملام عن حكام الأنام»، ويضم مجموعة من التعاليم والتنبهات التي توجه بها ابن خلدون للقضاة انطلاقاً من خبرته العملية في العمل في القضاء لسنوات طويلة ولكونه أحد أبرز العلماء في عصره.

أما فيما يتعلق بجيمس سكوت فتستعين الدراسة بكتاب Weapons of the weak أو «أسلحة الضعفاء»، وهو أحد أهم كتابات جيمس سكوت ومن أولى إصداراته الفكرية التي تتضمن الجهود البحثية والإمبريقية التي توصل من خلالها إلى استخلاصاته وأطروحاته النظرية التي صاغها في كتاب «المقاومة بالحيلة» الذي هو المرجع الأساسي لهذه الدراسة.

وتستعين الدراسة أيضاً بنصين أصليين آخرين لجيمس سكوت أحدهما نص مترجم بعنوان «أن تنظر كأنك دولة»، وهو عنوان مطابق لعنوان كتابه Seeing like a state؛ حيث كتب سكوت هذه الورقة كتقديم لنقاش حول كتابه المذكور وطرح فيه بعض الأفكار النظرية المهمة أيضاً عن علاقات القوة وسلطة الدولة وتأثيرها في المجتمع والجماعات المحكومة، بالإضافة إلى حوار صحفي لأحد المواقع العربية مع جيمس سكوت تم نشره في عام 2019؛ اهتم فيه المحاور بطرح تساؤلات تتعلق باستخدام الأطروحات النظرية لجيمس سكوت في فهم الواقع العربي في السنوات الأخيرة، كما تستعين الدراسة بمصادر أخرى ثانوية تتمثل في كتابات نقدية لباحثين ومفكرين آخرين تناولت أفكار المفكرين محل البحث بالنقد والتحليل.

وأخيراً تنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث، يستعرض المبحث الأول التعريف بالمفكرين محل الدراسة وتقديم نبذة عن أبرز اهتماماتهم الفكرية وأطروحاتهم النظرية التي تهتم الدراسة بتحليل مفاهيمها، كما يستعرض هذا المبحث التعريف اللغوي لمفهوم القوة في اللغتين العربية واللاتينية والمصادر الأساسية في دراسة المفهوم عند كلا المفكرين، بينما يستعرض المبحث الثاني شبكة المفاهيم المرتبطة بمفهوم القوة عند كلا المفكرين وتحديد تراتبية هذه المفاهيم وبيان أوجه التشابه

والاختلاف بينهما، وفي المبحث الثالث تستعرض الدراسة أوجه النقد الموجهة لأعمال كلا المفكرين وتقييم المفهوم من حيث الثراء والامتداد والتجليات السياسية والاجتماعية.

المبحث الأول

مدخل تمهيدي

يقدم هذا المبحث مدخلاً تمهيدياً مُهماً لموضوع الدراسة؛ إذ يستعرض في جزئه الأول التعريف بالمفكرين محل البحث من حيث شخصياتهم وتجاربهم وسياقهم الاجتماعي والسياسي إلى جانب اهتماماتهم الفكرية والعلمية، وأبرز ملامح أطروحاتهم الفكرية محل الدراسة، كما يستعرض في الجزء الثاني التعريف اللغوي لمفهوم القوة في الثقافتين العربية والغربية وتعريف كلا المفكرين للمفهوم ومصادرها لدراسة هذا المفهوم.

أولاً: التعريف بابن خلدون وجيمس سكوت

ابن خلدون: هو وليّ الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن خلدون، وعبد الرحمن هو اسمه أما وليّ الدين فهو لقبه الذي عُرف به بعد توليه وظيفة القضاء في مصر، وقد وُلد في تونس عام 722 هـ / 1322 م، وتُوفي في القاهرة عام 808 هـ / 1406 م، وهو من أسرة أندلسية عريقة نزعت إلى تونس -حيث وُلد ابن خلدون- وانتشرت فروعها في المغرب وتونس.

وكانت أسرة «بني خلدون، التي ينتمي إليها أسرة ضليعة في العلوم وفي السياسة، وكان لها بالطبع تأثير عميق في تكوينه العلمي ومسيرته الحافلة في الممارسات السياسية وعلاقاته بالملوك والحكام، فقد درس ابن خلدون في صباه القراءات السبع وعلوم الشريعة المختلفة كما درس الفلسفة، وتأثر بالأحوال السياسية المضطربة التي شهدتها بلدان شمال إفريقيا في عصره وكان ابن خلدون في القلب من هذه الاضطرابات ومن أكثر المتأثرين بها نظراً لنشاطه السياسي وعلاقاته بالحكام. فقد سافر إلى العديد من البلدان في الشرق والغرب وتولى فيها العديد من المناصب؛ واعتاد الانتقال من معسكر سياسي إلى آخر، وكثيراً ما فرّ هارباً من وشاية أو بطش باحثاً لنفسه عن

مكانة سياسية جديدة لدى حاكم آخر، ومر بتجربة السجن والاعتقال، كما امتلك علاقات كبيرة بالقبائل والقوى السياسية المختلفة في عهده، فخير أسباب وعوامل سقوط وقيام الدول، ودون نظراته الثاقبة في السياسة والاجتماع في مجموعة من الكتابات المهمة، ومن أبرزها ما يُعرف بـ«المقدمة» أو مقدمة ابن خلدون؛ وهي المجلد الأول من كتابه الضخم المُعنون بـ«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»².

وتقوم النظرية الاجتماعية والسياسية عند ابن خلدون على تأمله في أحوال الدول وأسباب قيامها وسقوطها في العصور التي عاش فيها والتي مثلت فيها القبيلة المُكون الأهم ضمن القوى الاجتماعية والسياسية، ومن ثم كانت العصبية القبلية وتطورها ودورها في بناء القوة السياسية للقبيلة أولاً ثم الدولة لاحقاً هي وحدة التحليل المركزية التي تقوم عليها الأطروحات النظرية لابن خلدون وتحليله لعلاقات السلطة داخل المجتمع.

أما جيمس سكوت فهو: أستاذ العلوم السياسية والأنثروبولوجيا ورئيس قسم الدراسات الزراعية في جامعة ييل، وُلد في ديسمبر عام 1936، ولا يزال على قيد الحياة، وتتركز دراساته وأبحاثه على الاقتصاد السياسي والمجتمعات الزراعية المقارنة ومجتمعات اللادولة ونظريات الهيمنة والمقاومة وسياسة الفلاحين والثورات ومجتمعات جنوب شرق آسيا ونظريات علاقات الطبقة والأناركية، ويشتهر بدراساته عن مجتمعات الفلاحين في جنوب شرق آسيا، والطرق التي تتبعها هذه المجتمعات في مواجهة آليات السيطرة عليها، وكان سكوت قد حصل على البكالوريوس في الاقتصاد السياسي عام 1958، من كلية ويليامز، وحصل على ماجستير العلوم السياسية من جامعة ييل عام 1963، وعلى الدكتوراة عام 1967، ومن أشهر كتاباته «الاقتصاد الأخلاقي

² عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أبي عبد الرحمن عادل بن سعد، القاهرة، الدار الذهبية، ص8،7. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاروت الطبخي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2004، ص4،3.

للفلاحين - 1976»، و«أسلحة الضعفاء - 1985»، و «المقاومة بالحيلة - 1990»، و«فنُّ ألا تكون محكومًا - 2009»، و«ضد القمع.. تاريخ معمق للدول الأولى - 2017».³ وتتمثل الأطروحة الأساسية لجيمس سكوت في تحليله لأشكال تجلي علاقات السيطرة والخضوع داخل المجتمع وتأثير هذه العلاقات على تصرفات الأفراد، وعلى التواصل السياسي داخل المجتمع؛ ويُركز تحليله بشكل أساسي على تصرفات المحكومين وأشكال مقاومتهم لعلاقات السيطرة التي تُمارس عليهم من قبل الشرائح الحاكمة، وليس المقصود بالمقاومة فقط ذلك الفعل المتمرد أو الثوري بالمفهوم التقليدي الشائع؛ وإنما يرصد سكوت أنماطاً متنوعة للمقاومة أو التعبير عن الرفض لعلاقات السيطرة داخل المجتمع لا تتضمن بالضرورة ذلك الانفجار الثوري أو حركات التمرد الكبرى، ويُسمى سكوت هذه التصرفات بـ«السياسة التحتية».

ثانياً: تعريف مفهوم القوة وتجلياته في فكر ابن خلدون وسكوت

القوة في اللغة العربية هي: الطاقة على العمل، وقوي الرجل أي كان ذا طاقة على العمل⁴، وقوي على الأمر أي أطاقه، والقوة عكس الضعف، والقوة تعني أيضاً الترابط، فالشخص قوي البنية: أي مترابط، والسياسي القوي أي صاحب النفوذ والسلطان والقدرة على إسكات خصومه، والقوة تعني الكثرة والنصرة، فقوي الظهر تعني كثير الأنصار.⁵

ومن المفيد أيضاً استعراض التعريف اللغوي لمفهوم العصبية الذي يُعد المفهوم المركزي في الفكر الاجتماعي لابن خلدون، والنظير الأبرز لمفهوم القوة لديه؛ فالعصبية هي مصدر صناعي من عَصَب، وهي دفاع بشدة عمن يُتعصب لهم، وحماس شديد في الميل لهم والدفاع عنهم، وتعني

³ James Scott, Department of political science, Yale University. <https://politicalscience.yale.edu/people/james-scott>
جيمس سكوت، أن تنتظر كأنك دولة، أسامة غاوجي (مترجم)، متراس، 9 فبراير 2019.
<https://metras.co/%D8%AC%D9%8A%D9%85%D8%B3-%D8%B3%D9%83%D9%88%D8%AA-%D8%A3%D9%86-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D8%B1-%D9%83%D8%A3%D9%86%D9%91%D9%83-%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9/>

⁴ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 1452 هـ / 2004 م، ص 768.

⁵ قاموس المعاني، <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%88%D8%A9/>.

أيضًا شدة الانفعال والحدة والخشونة، ومعنى تعصّب الرجل في دينه أو مبدئه أي كان شديدًا غيرًا فيه مدافعًا عنه، ومعنى تعصب للشيء، أو معه: نصره، وتعصب عليه: وقف ضده أو قاومه.⁶

ولا يبتعد هذا المعنى اللغوي لمفهوم العصبية كثيرًا عما قصده ابن خلدون باستخدامه لهذا المفهوم؛ فالعصبية عند ابن خلدون في أحد تعريفاتها: «هي التي تكون بها الحماية والمدافعة وكل أمر يُجتمع عليه ومن فقدّها عجز عن ذلك كله»،⁷ وهي مركز القوة السياسية للقبيلة وللدولة في نظريته السياسية؛ إذ كلما كانت القبيلة أكثر عصبية وتماسكًا كلما تزايدت فرصها السياسية في الغلب وحيازة المُلك، والعكس صحيح كلما نقصت عصبية القبيلة التي تحوز الملك نقصت قدرتها على الاحتفاظ به وتلاشت سلطتها تدريجيًا.

واعتمادًا على هذا التعريف يُمكن القول إنّ التجلي الأبرز لمفهوم القوة في فكر ابن خلدون هو في مفهوم «العصبية»؛ فإذا كانت القوة في اللغة هي الطاقة على العمل، فإن هذه الطاقة عند ابن خلدون مُتمثلة في «العصبية»، ومن ثم فإن قراءتنا لمفهوم القوة عند ابن خلدون سوف تتركز على تحليل مفهوم العصبية والمفاهيم المرتبطة به وكيفية استخدام ابن خلدون لها في تحليل علاقات القوة داخل المجتمع، خاصة وأن مفهوم «القوة» ذاته لم يتكرر كثيرًا في النصوص الأصلية لابن خلدون وإنما ورد بمعاني أخرى مختلفة ومرتبطة كلها بمفهوم العصبية مثل الغلبة والقهر والحكم وغيرها كما سيرد بيانه لاحقًا.

والقوة **Power** في اللغة الإنجليزية هي: القدرة على فعل أو إنجاز شيء ما⁸، وكنظير لمفهوم القوة يحتل مفهوم «السيطرة Domination»، المكانة التعبير الأبرز عن ممارسات القوة في

⁶ قاموس المعاني نقلًا عن: مُعجم اللغة العربية المعاصرة، متاح على الرابط: <https://bit.ly/395uOdB>

⁷ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 158.

⁸ Dictionary.com. <https://www.dictionary.com/browse/power?s=t>

أطروحات جيمس سكوت، ولذلك تجدر بنا الإشارة إلى المعنى اللغوي لمفهوم «السيطرة Domination» في اللغة الإنجليزية؛ حيث يتضمن هذا المفهوم معاني الحكم والتحكم والنظر من أعلى والطغيان.⁹

ويصف جيمس سكوت أشكال السيطرة التي يهتم بدراستها بأنها «وسائل ممنهجة بشكل يجعلها تحصل على عمل وبضائع وخدمات من الشعب المحكوم، وهي تُجسد فرضيات شكلية تتعلق بمسائل السمو والدنو، وغالبًا بشكل أيديولوجي متقدم، وكذلك تُجسد درجة معتدلة من الطقوس والتسميات التي تضبط عمليات السلوك العلني بينها»¹⁰، ومن ثم فإن هذا المفهوم في فكر جيمس سكوت يتضمن طيفًا واسعًا من ممارسات القوة داخل المجتمع، وسيتم الانطلاق منه كمفهوم مركزي لتحليل علاقات القوة والمفاهيم المرتبطة بها في فكر جيمس سكوت.

ثالثًا: المصادر الرئيسية في أطروحات كلا المفكرين

تنقسم مصادر ابن خلدون في استخدامه لمفهوم العصبية لتحليل الواقع السياسي والاجتماعي إلى مصادر دينية ومصادر تاريخية؛ فكثيرًا ما يستشهد بنصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية للاستدلال على أطروحاته النظرية بخصوص العصبية، ومن أمثلة ذلك استدلاله بقصة النبي موسى مع قومه من بني إسرائيل والواردة في القرآن الكريم لإثبات أطروحته بشأن اختلاف العصبية بين الأجيال المختلفة؛ فالجيل الأول من بني إسرائيل والذي هرب مع النبي موسى من مصر كان قد اعتاد الذل والخضوع لأحكام القبط في مصر، ولذلك لم يكن يملك من العصبية ما يُمكنه من غزو أرض العمالقة في الشام التي وعدهم الله بالانتصار عليهم إذا ما حاربوهم؛ لذلك كانت حكمة عقوبتهم بالتيه في الصحراء لمدة أربعين عامًا هي هلاك الجيل الأول ونشأة جيل جديد يعتاد

⁹ Dictionary.com <https://www.dictionary.com/browse/dominate>

¹⁰ جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة.. كيف يهمس المحكومون من وراء ظهر الحكام، إبراهيم العريس ومخايل خوري (مترجمان)، بيروت، دار الساقي، الطبعة الأولى، ص 38، 39.

على حياة البدو وشظف العيش ويملك من العصبية والشجاعة ما يُمكنه من الغلب والقهر وحياسة
المُلك.¹¹

وأما المصادر التاريخية فهي المصادر الأصلية للأطروحات النظرية التي قدمها ابن خلدون؛ إذ
إن معظم كتابات ابن خلدون هي في الأصل كتابات تاريخية حتى أن كتاب مقدمة ابن خلدون
ما هو إلا جزء من كتاب «العبر» الذي هو موسوعة تاريخية ضخمة كتبها ابن خلدون، كما يغلب
التأريخ على كل كتابات ابن خلدون بما فيها مذكراته الشخصية الصادرة في كتاب بعنوان «رحلة
ابن خلدون»؛ حيث يصف فيه أسفاره وتجاربه في البلدان المختلفة وأحوال هذه البلدان وأحداثها
السياسية؛ ولا تخلو هذه الأوصاف من نظرات تأملية في أسباب قيام وسقوط الدول والتداول
الحضاري بين الممالك والأمم المختلفة التي يسود بعضها بعضًا بالتداول على فترات تاريخية
مختلفة مستفيدًا من أطروحاته النظرية حول أسباب قوة وضعف الدولة المتعلقة بالعصبية في
بداية الأمر ثم الانغماس في الترف والانتهاه بسقوط الدولة.¹²

أما جيمس سكوت فمصدره الأساسي هو دراسته ومعايشته للمجتمعات الزراعية ومجتمعات
الفلاحين وفق منهج أنثروبولوجي يعتمد على الالتقاء المباشر بأفراد هذه المجتمعات وسؤالهم عما
يعتقدون أنهم يفعلونه، وفي سبيل ذلك فقد لجأ في دراسته الأولى «أسلحة الضعفاء» إلى العيش
لعامين كاملين في إحدى قرى الملايو ليتوصل إلى خلاصاته حول علاقات السيطرة والهيمنة
والمقاومة والخضوع.¹³

واعتمد سكوت أيضًا على التاريخ في تحليله لعلاقات القوة والسيطرة، وظهر ذلك بشكل خاص
في كتابه «أن تنظر كأنك دولة» الذي استند فيه إلى وقائع تاريخية في بلدان أوروبية وآسيوية
مختلفة للاستدلال على تأثير عمليات التحديث وتأسيس الدول القومية في تصدير قراءة مختزلة

¹¹ عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 160، 161، 191.

¹² عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 275 - 286.

¹³ «هناك دائمًا ما هو تحت رادار السلطة» حوار مع جيمس سكوت، ألترا صوت، 9 فبراير 2019. <https://bit.ly/3trzxOX>

للواقع الاجتماعي الفعلي بما يضر بالبشر والسكان وأعضاء المجتمع أنفسهم¹⁴، كما اعتمد سكوت بشكل ثانوي على الأعمال الأدبية والمسرحية وتوصيفها لخطاب المجموعات الخاضعة للهيمنة والسيطرة وتحولات هذا الخطاب بين ما هو مُعلن وما هو مُستتر للاستدلال بها على أطروحاته النظرية.¹⁵

المبحث الثاني

خريطة المفاهيم المرتبطة بمفهوم القوة عند كلا المفكرين

وفق أسلوب التحليل النقدي للمفاهيم يُمكننا تقسيم المفاهيم المرتبطة بالمفهوم المركزي للدراسة إلى: مفاهيم مرادفة، ومفاهيم مناظرة، ومفاهيم مناقضة، ومفاهيم متفرعة عن المفهوم المركزي، وفيما يلي سرد لهذه الأنماط من المفاهيم الواردة في نصوص ابن خلدون الأصلية وتفصيل لشبكة العلاقات فيما بينها.

أولاً: المفاهيم المرادفة

أشارت الدراسة آنفاً إلى أن مفهومي العصبية عند ابن خلدون والسيطرة عند جيمس سكوت هما التجلي الأبرز لمفهوم القوى لدى كلا المفكرين، وأوردت الدراسة تعريف هذين المفهومين وما يتضمنانه من ارتباط وثيق بمفهوم القوة، وفي هذا الجزء تستعرض الدراسة المفاهيم المرادفة لمفهومي العصبية والسيطرة في أطروحات ابن خلدون وجيمس سكوت.

¹⁴ جيمس سكوت، أن تنظر كائك دولة، أسامة غاوجي (مترجم)، مرجع سابق.

¹⁵ جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة.. كيف يهس المحكومون من وراء ظهر الحكام، مرجع سابق، ص 13-33.

● المفاهيم المرادفة لمفهوم العصبية: ذكرنا آنفاً أحد تعريفات ابن خلدون للعصبية بأنها هي التي تكون بها الحماية والمدافعة والمقاومة والمطالبة وكل أمر يُجتمع عليه، ويُستنتج من هذا التعريف أن مفاهيم «الحماية»، و«المدافعة»، و«الاجتماع»، و«التعاون»، و«المقاومة» و«المطالبة»؛ هي من المفاهيم المرادفة لمفهوم العصبية في فكر ابن خلدون، ويتعلق ذلك بالأصول النظرية الكبرى لنظرية ابن خلدون الاجتماعية، فالإنسان كائن مدني بطبعه ويحتاج إلى الاجتماع بغيره من أبناء جنسه والتعاون معهم للدفاع عن نفسه من العدوان ولتوفير حاجاته الأساسية من غذاء وغيره.¹⁶

● المفاهيم المرادفة لمفهوم السيطرة عند جيمس سكوت: يستخدم سكوت مفهوم «الطغيان» لوصف أنماط الحكم القائم والذي يعيش في ظله جزء كبير من هذا العالم، وهو مفهوم يُمكن اعتباره مرادفًا لمفهوم السيطرة وفق ما يطرحه جيمس سكوت، ومن أشكال الطغيان التي اهتم سكوت بدراستها -بحسب تعبيره- العبودية والرق وحالات المنبوذين (الأقليات في مجتمعات هندوسية) والسيطرة العرقية بما في ذلك الكولونيالية والأوضاع في المجتمعات الفلاحية شديدة الفقر والتمايز الطبقي.¹⁷

ثانيًا: المفاهيم المناظرة

المفهوم المناظر هو الشبيه أو المساوي أو المثل في الرتبة والدرجة والأهمية، وهو ليس مرادف في المعنى ولكنه مواز له على أصعدة ومستويات أخرى، فمفهوم الحرية نظير لمفهوم الاستقلال

¹⁶ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص48، 161.

¹⁷ جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة..، مرجع سابق، ص37، 38.

وهكذا، وفي هذا الجزء تستعرض الدراسة المفاهيم المناظرة لمفهوم العصبية عند ابن خلدون والسيطرة عند جيمس سكوت.

● المفاهيم المناظرة لمفهوم العصبية: من المفاهيم المناظرة لمفهوم العصبية في فكر ابن خلدون مفاهيم «النسب»، و«العمران»، و«الدولة»، وفيما يلي تفصيل لهذه المفاهيم وعلاقتها بمفهوم العصبية:

مفهوم النسب: يرى ابن خلدون أن النسب أمرٌ وهمي لا حقيقة له، وأن نفعه فقط يكمن في قدرته على إثارة النعرة والحمية تجاه ذوي الأرحام التي تتكون بها العصبية، وإنما إذا تحول النسب إلى علم لا أثر له في نفوس أهله يكون علمًا لا ينفع ومن الإثم الانشغال به، مُستشهدًا بحديث النبي القائل: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»¹⁸؛ فالنسب إذاً هو علاقة القرابة التي تخلق صلة الأرحام بين أفراد القبيلة الواحدة، وهي لذلك ترتبط بالعصبية بالضرورة؛ بل إن القرابة قد تتواجد دون حصول العصبية، ولكن لا تحصل العصبية عادة بدون النسب والقرابة؛ ومن ثم فالنسب مفهوم مناظر للعصبية وليس مرادفًا لها، ويوليه ابن خلدون في تحليله الاجتماعي اهتمامًا خاصًا نظرًا لكون «القبيلة»، هي أحد المحاور الأساسية في نظريته السياسية والاجتماعية، وهو في ذلك متأثر بشكل كبير بالسياق الاجتماعي والظرف التاريخي الذي عاصره.

مفهوم الدولة: يقترن مفهوم الدولة في فكر ابن خلدون بشكل كبيرة بمفهوم «القبيلة» وعصبيتها، فالدولة في فكره لا تعدو كونها قبيلة ذات عصبية قوية تمكنت من حيازة الملك على غيرها من القبائل وتوسعت وانتقلت من البداوة إلى الحضارة وبناء البلدان والإكثار من الموالى والأتباع حتى تضعف عصبيتها وتراجع قدرتها على التوسع فتبدأ تدريجيًا في التلاشي والانهييار، ومما يدل على أن مفهوم الدولة في فكر ابن خلدون مرادف للقبيلة الحاكمة استدلاله على أن لكل دولة حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها بأن «السبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين

¹⁸ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 146، 147.

بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصًا على الممالك والشعور التي تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك. فإذا توزعت العصائب كلها على الشعوب والممالك فلا بد من نفاذ عددها، وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة وتحمًا لوطنها، ونطاقاً لمركز ملكها، فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور، ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة»¹⁹، ويدل على ذلك أيضاً ربطه عمر الدولة بعمر سيادة ومُلك العصبية الحاكمة والذي يستمر لثلاثة أجيال كما سبق وأشارت الدراسة.

ويقول ابن خلدون في رحلته واصفًا ما عبر عنه بـ«تتقل أحوال الدول بالتدرج إلى الضخامة والاستيلاء ثم إلى الضعف والاضمحلال»، أن «الدول الكلية، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحدًا بعد واحد في مدة طويلة قائمين على ذلك بعصبية النسب أو الولاء، وهذا كان الأصل في استيلائهم وتغلبهم، فلا يزالون كذلك إلى انقراضهم، وغلب مستحقين آخرين ينزعونه من أيديها بالعصبية التي يقتدرون بها على ذلك»،²⁰ ويتجلى في هذا النص الارتباط الكبير بين مفهومي العصبية والدولة.

ومفاهيم «التوحش»، و«الشجاعة»، هي مفاهيم مناظرة لمفهوم العصبية؛ إذ كلها تجليات لقوة القبيلة وارتباطها بحياة البدو وشطف العيش الذي يجعلها أكثر بأسًا وأكثر قدرة على التغلب على من سواها وحياسة المُلْك.

أما مفهوم العمران: فيُعتبر المفهوم الأكثر مركزية في أطروحات ابن خلدون النظرية، حتى أن مفهوم العصبية يُعد من المفاهيم المُتفرعة عن مفهوم العمران وليس فقط مناظر له، وذلك على الرغم من الأهمية التحليلية لمفهوم العصبية في دراسة ابن خلدون للظواهر السياسية والاجتماعية؛

¹⁹ المرجع السابق، ص 182.

²⁰ عبدالرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 246.

إذ يقول ابن خلدون إن «حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من المُلْك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال».²¹

فالعمران عند ابن خلدون هو الاجتماع البشري بشكل عام بمُجمل ما فيه من تفاعلات وعلاقات وظواهر اجتماعية وسياسية مختلفة، ولذلك فهو مفهوم شامل لمجمل التجربة البشرية، وهو الذي تترتب عليه بقية المفاهيم في أطروحات ابن خلدون النظرية.

- المفاهيم المناظرة لمفهوم السيطرة: يستخدم جيمس سكوت مفهوم «الهيمنة» بمعنى مُناظر لمفهوم السيطرة، فالجماعات المسيطرة تسعى إلى الهيمنة بمفهوم الفيلسوف جرامشي - على الخاضعين عن طريق صياغة بُعد أيديولوجي يجعل حكمهم يبدو وكأنه يتمشى مع مصلحة محكومهم، وهذا البعد الأيديولوجي هو الذي يُميز الخطاب العلني الذي تتبناه الجماعات المسيطرة وتقرضه على الجماعات الخاضعة.²²

ويصف سكوت هذا الشكل من الهيمنة بـ«السيطرة الأيديولوجية Ideological domination»، التي لا تستهدف فقط السيطرة المادية على الموارد والممتلكات ولكن أيضًا تستحوذ على المنتجات الرمزية والقيمية لتصبح حكرًا على الطبقة المسيطرة ومصالحها، ومع ذلك فإن سكوت ينتقد مصطلح الهيمنة كما قدمه جرامشي ويرى أنه يحتاج إلى إعادة قراءة وتفكير؛ حيث إن مصطلح الهيمنة كما قدمه جرامشي والأطروحات المرتبطة به مثل الوعي

²¹ عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص41.

²² جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة ..، مرجع سابق، ص34، 35.

الطبقي وأجهزة الدولة الأيديولوجية وغيرها ليست كافية لتفسير وفهم الصراع الطبقي في سيداكا «تلك البلدة التي أجرى عليها دراسته المنشورة في كتاب بعنوان أسلحة الضعفاء».²³

ويُبرر ذلك بأن الأيديولوجيا المهيمنة لا تتمكن من تزييف الوعي الطبقي بالكامل لدى الجماعات الخاضعة؛ فهذه الجماعات تمتلك من الخبرات المادية في الحياة اليومية ما يُمكنها من اختراق هذه الأيديولوجيا وإزالة الغموض بشأنها²⁴، فهي بالتالي لا تؤمن بادعاءات الأيديولوجيا المهيمنة بأنها تُحقق مصالح الجماعات الخاضعة أيضًا، وإنما تخلق هذه الجماعات الخاضعة ثقافة تحتية انشاقية متمردة على الأيديولوجيا المهيمنة التي تسعى الجماعات المسيطرة لفرضها على الجميع.²⁵

ثالثًا: المفاهيم المناقضة

● المفاهيم المناقضة لمفهوم العصبية: تُعد مفاهيم الأحكام القهر والعقاب والمذلة من المفاهيم المناقضة للعصبية في فكر ابن خلدون؛ إذ هي أكبر أسباب تلاشي العصبية بينهم وإضعاف بأس رعايا الدولة؛ ولذلك فسمة أهل الحضرة الخاضعين للملك غير العادل وغير الرفيق هي فساد بأسهم وذهاب المنعة عنهم بحسب تعبير ابن خلدون؛ إذ يقول: «فإن كانت الملكة رفيقة عادلة .. كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع .. وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من صورة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم، لما يكون من التكاثر في النفوس المضطهدة،

²³ James C. Scott , *weapons of the weak .. the everyday forms of peasant resistance* , Yale university press, New Haven and London, 1958, PP: 314 – 318.

²⁴ EIBD, PP: 318 – 322.

²⁵ جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة..، مرجع سابق، ص 147 – 157.

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمُذهبة للباس لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يُكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك».²⁶

وتحدث ابن خلدون أيضًا عن الأحكام التأديبية والتعليمية باعتبارها مُذهبة للعصبية والباس لتربيتها الأفراد على المخافة والانقياد منذ الصبا، ودلل على ذلك بقوله «لذلك نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأسًا ممن تأخذهم الأحكام. ونجد الذين يعانون الأحكام من لدن مربيهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرًا .. وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والآخذين عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فتهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والباس»،²⁷ فممارسات التعليم والتأديب في رأي ابن خلدون تؤثر في نفوس الأفراد بما يُضعف بأسها وعصبيتها ويجعلها أكثر انقيادًا وخضوعًا لعلاقات السلطة داخل المجتمع.

ومما يطرحه ابن خلدون بشأن «الأمم المغلوبة» الخاضعة لمُلك غيرها أن هذه الأمم يُسرّع إليها الفناء نظرًا لما يحصل في نفوس أبنائها من التكاثر إذا ما صارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمر ويضعف التناسل بعد تراجع الأمل لديهم والذي هو المحفز الرئيسي للعمران؛ فيتلاشى عمران الأمة المغلوبة ويتلاشى حضورها خاصة بعد ذهاب عصبيتهم جراء الغلب الواقع عليهم.²⁸

وكذلك مفهوم الترف، من المفاهيم المناقضة للعصبية في فكر ابن خلدون؛ حيث تنتقل القبيلة من مرحلة البداوة والخشونة والعصبية إلى الدعة والراحة بعد حيازة المُلك واستقراره في يدها، فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة، ويكون ذلك أول الطريق لانهايار الدولة وتلاشي مُلكها، فالترف في رأيه من عوائق المُلك.²⁹

²⁶ عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 143.

²⁷ المرجع السابق نفسه.

²⁸ المرجع السابق، ص 167، 168.

²⁹ المرجع السابق، ص 159.

● المفاهيم المناقضة لمفهوم السيطرة: يُعد مفهوم «الخضوع»، هو أبرز المفاهيم المناقضة لمفهوم السيطرة عند جيمس سكوت، بالإضافة إلى مفاهيم مثل: «العقاب»، و«الرقابة»، و«المقاومة» فعلى الطرف الآخر من الجماعات المسيطرة توجد الجماعات المحكومة الخاضعة التي تُمارس عليها أشكال السيطرة المختلفة والتي تُخضعها للعقاب والرقابة، وتُجبرها على ملائمة سلوكها وخطابها وفق ما يُتوقع منها بحكم علاقات القوى والخطاب العلني السائد، ويتمثل المظهر الأكثر فجاجة لهذا الخضوع في كبح الخاضع لجماح غضبه والسيطرة على ذاته تجاه الممارسات المهينة العقابية له ولأفراد أسرته -خاصة في حالة الاسترقاق- والتي لا يتمكن من مواجهتها أو التصرف بشأنها؛ حيث يكون توكيد الكرامة الشخصية للخاضع بمثابة مخاطرة كبيرة، فتلجأ هذه الجماعات الغاضبة إلى الخطاب المستتر للتعبير عما بداخلها من غضب يبوح به الخاضعون إلى نظرائهم من أبناء الجماعات الخاضعة وإلى ممارسات «السياسة التحتية» كأشكال لمقاومة سيطرة وطغيان الجماعات الحاكمة بدون مخاطرة كبيرة.³⁰

ويُقسم جيمس سكوت أنماط السيطرة في علاقتها العكسية بأنماط المقاومة إلى ثلاثة أنماط هي: ويُقسم سكوت السيطرة إلى ثلاثة أنواع: سيطرة مادية، وسيطرة مرتبية (status domination) وسيطرة أيديولوجية؛ كما يُقسم أنماط المقاومة في مواجهة هذه الأنماط من السيطرة إلى نمطين اثنين هما: المقاومة العلنية، والمقاومة الخفية «السياسة التحتية».

فالسيطرة المادية تعني ممارسات الاستيلاء على الأموال والضرائب والحبوب والخدمات وغيرها، وهذه السيطرة المادية تقابلها من أنماط المقاومة العلنية ممارسات من قبيل لوائح الاعتراض والتظاهر والإضراب والمقاطعة واقتحام الأراضي والثورات والتمرد المكشوف، ومن أنماط المقاومة

³⁰ جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة..، مرجع سابق، ص 56، 57.

الخفية ممارسات يومية من قبيل التملص والتهديد والهجمات المباشرة من قبل مقاومين متكرين والتهديدات المغلفة والتملص والسراقات وغير ذلك.

أما السيطرة المرتبية فتتمثل في إذلال الحاكمين للخاضعين وحرمانهم وإهانة كرامتهم، ويواجه هذا النمط من السيطرة من أنماط المقاومة العلنية بممارسات من قبيل إزدراء مكانة المسيطرين والتأكيد العلني للقيمة عبر الكلام والملابس والتحركات، ومن أنماط المقاومة الخفية يُواجه هذا الشكل من السيطرة المرتبية بتراث من الغضب المخفي والعداوة والمناقشات السرية بشأن الكرامة، وحكايات عن حالات الثأر والشائعات وغيرها مما يُكون فسحة اجتماعية مستقلة ذاتيًا للتأكيد على الكرامة. وأما السيطرة الأيديولوجية فتتمثل في تبرير الجماعات الحاكمة لطغيانها وممارسات الرق والقنانة والنظام المنغلق والامتيازات التي تختص بها هذه الفئات المسيطرة، ومن أنماط المقاومة العلنية التي تتفاعل مع هذا النمط من السيطرة ظهور أيديولوجيات عامة تسعى لهدم الأيديولوجيا المسيطرة وتدعو إلى الثورة والتمرد وتطالب بالمساواة، ومن الأنماط الخفية للمقاومة تطور ثقافات تحتية منشقة من ديانات تعد بالسعادة أو دين شعبي وخرافات وأساطير عن عصابات اجتماعية وأبطال طبقيين وخرافات الملك الصالح الذي يأتي لإقامة العدل في الأرض وغير ذلك.³¹

رابعًا: المفاهيم المتفرعة

● المفاهيم المتفرعة عن مفهوم العصبية

مفهوم الغلبة: هي القدرة على انتزاع ما في أيدي الآخرين وإخضاعهم، وكلما كانت الأمة أكثر وحشية وبداعة كانت أكثر بسالة وقدرة على الغلب من أمم أخرى تُكافئها في العصبية وفي القوة

³¹ المرجع السابق، ص 232. وتجدر الإشارة إلى أنه في هذه النسخة المترجمة من كتاب جيمس سكوت تمت ترجمة أنماط السيطرة في هذا الجزء إلى مصطلح (الهيمنة) بالعربية، ولكن بالعودة إلى النص الأصلي باللغة الإنجليزية وُجد أن الكاتب يستخدم مصطلح السيطرة (Domination) وليس الهيمنة Hegemony.

ولكن أكثر منها تحضراً وأبعد منها عهداً بالبداوة والوحشية، والغلبة مترتبة على العصبية؛ لأن الغلب لا يكون إلا بالعصبية³²، فهو مفهوم متفرع عنها.

ومن أهم الأطروحات النظرية التي يُقدمها ابن خلدون باستخدام مفهوم الغلبة أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك الاعتقاد بالكمال في الغالب والانقياد إليه، ومن الأدلة المنطقية على ذلك والتي أوردها ابن خلدون اقتداء الابن بأبيه وتقليده له في صغره، وهذا هو سر القول الشائع بأن العامة على دين الملك، إذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه.³³

ومن النصوص التاريخية لابن خلدون التي يستخدم فيها مفهوم الغلبة في تحليله للوقائع التاريخية وصفه -في تاريخ المغول من كتاب العبر- لظهور الدولة السلجوقية وتغلبها على الدول القديمة السالفة عليها إذ يقول: «وقد ظهر لذلك العهد بنو سلجوق وغلبوا ملوك الترك على أمرهم، وأصبحوا في عداد ولايتهم؛ شأن الدول البادية الجديدة على الدول القائمة الحاضرة، ثم قارعوا بني سبكتين وغلبوهم على ملكهم فيما بعد المائة الرابعة، واستولوا على ممالك الإسلام بأسرها .. واستفحلت دولتهم بما لم تنته إليها دولة بعد العرب والخلفاء في الملة، ثم تلاشت دولتهم بعد مائتين من السنين شأن الدول وسنة الله في العباد»³⁴، ويظهر من هذا النص عمق تأثير المفاهيم النظرية التي صكها ابن خلدون في نظريته السياسية في تحليله للأحداث التاريخية.

مفاهيم الملك والوازع: من المفاهيم الأكثر شيوعاً في النظرية السياسية لابن خلدون، فهو ضروري للاجتماع البشري حيث يدفع عدوان البشر بعضهم على بعض ويقضي على القتل والفوضى

³² عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص150.

³³ المرجع السابق، ص 166، 197.

³⁴ ابن خلدون، الخبر عن دولة التتر.. تاريخ المغول من كتاب العبر، تحقيق: أحمد عمراني، بيروت، دار الفارابي، الطبعة الأولى، 2013، ص80.

وسفك الدماء الذي تسببه الدوافع الحيوانية عند البشر والتي تدعوهم للاعتداء على الآخرين واستلاب ممتلكاتهم، وهذا المُلْك لا يتم إلا بالعصبية بل هو الغاية الكبرى للعصبية.³⁵

وفي رسالته للقضاة يصف ابن خلدون القاضي بـ«الحكم» ويصف دوره في عنوان الجزء الأول من رسالته والذي سمّاه: «التنبيه لمهمات الحكم الفاصل بين الخصم الدافع لشرورهم»، فالقاضي يُمثل ذلك الوازع الذي يدفع شرور الرعايا أن تصيب الآخرين، كما ينصح القضاة باستحضار النية الصالحة في عملهم وهي إقامة نظام العالم وبث العدل في الخلائق امتثالاً لقول الله تعالى: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين».³⁶

ويُميز ابن خلدون بين الوازع الذاتي والوازع الأجنبي وتأثيره على شخصية الفرد وسلوكه، فعندما يأتي الوازع الذي يمنع الشخص عن الاعتداء أو يدفعه للعصبية والمنعة من ذاته ومن إيمانه الخاص دون قهر أو تأديب من خارجه فإن أثره يكون إيجابياً؛ إذ يعزز البأس والقوة ولا يقضي عليهما، أما «الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجنبي».³⁷

مفهوم الاستبداد: يأتي مفهوم الاستبداد في فكر ابن خلدون بمعنى إحكام القبضة على الحكم والتمكن منه، ومن ذلك ما رواه ابن خلدون في رحلته بقوله: «وكان بنو سامان من أتباع بني طاهر - قد تقلدوا عمالات ما وراء النهر، فلما فشل أمر الخلافة استبدوا بتلك النواحي، وأصاروا لهم فيها مُلْكًا ضخماً، وكان آخرهم محمد بن سبكتكين من مواليهم، فاستبد عليهم، وملك خُراسان»³⁸ كما أورد ابن خلدون في مقدمته فصلاً بعنوان: «فيما يعرض في الدول من حجر

³⁵ المرجع السابق، ص 209، 208.

³⁶ العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، ابن خلدون ورسالته للقضاة..مُزيل الملام عن حكام الأنام، مرجع سابق، ص 103، 104.

³⁷ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 144.

³⁸ عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 280.

السلطان والاستبداد عليه»، وتناول فيه أحوال السلاطين صغار السن الذين يستبد بأمرهم وزرأؤهم وينشئونهم على الراحة والدعة والقعود مع النساء خلف الحجاب بينما ينفرد الوزراء والموالي بأمر الدولة والحل والعقد فيها دون السلطان³⁹، والاستبداد من سمات الدول في أطوارها الثلاثة الأولى من أطوار الدولة عند ابن خلدون والتي استعرضتها الدراسة آنفاً، فهو إذا من علامات قوة الدولة وصاحبها ويبدو أنه سمة أصيلة للحكم في السياق التاريخي الذي عاصره ابن خلدون.

وترد مفاهيم القوة والقدرة: في نصوص ابن خلدون بمعنى تابع لمفهوم العصبية؛ فالعصبية تزداد قدرة القبيلة أو الدولة وقوتها على الغلب والتوسع وحياسة الملك، وتجدر الإشارة إلى أن ورود هذه المفاهيم يُعد محدود جداً من الناحية العددية بالنسبة إلى المفاهيم الأخرى، ومع ذلك تحمل الكثير من المفاهيم التي استخدمها ابن خلدون مضامين ودلالات القوة والقدرة، مثل مفهوم الغلب والبأس والحكم والقهر والعقاب وغيرها.

● المفاهيم المتفرعة عن مفهوم السيطرة عند جيمس سكوت

يعتمد تحليل سكوت بشكل كبير على «اللغة»، أو «الخطاب» كمرتكز أساسي لتحليله؛ ويُقسم الخطاب السائد في المجتمع إلى أربعة أنماط رئيسية، ويُمثل كل من هذه الأنماط الخطابية مفهوماً من المفاهيم المتفرعة عن مفهوم السيطرة في الأطروحة النظرية التي يُقدمها جيمس سكوت، وفيما يلي بيان هذه المفاهيم الأربعة وتعريفاتها:

1-الخطاب العلني: وهو الخطاب الذي يستخدمه كل من الخاضعين والمسيطرين في

تفاعلاتهم مع بعضهم البعض وبالأخص في التفاعلات العلنية، وبالتالي فهو يعتمد بشكل

كلي على أيديولوجيا الجماعات الحاكمة التي قد تتضمن بعض القيم والأخلاقيات التي

تنص على رعاية الحاكمين للخاضعين وتحقيق بعض مصالحهم، فتراعي الجماعات

³⁹ عبدالرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 207، 208.

الخاضعة في استخدامها لهذا الخطاب التأكيد على خضوعها للحاكمين واعترافها بأفضالهم طلبًا في المصالح والامتيازات المرجوة والتي تمنحها لهم الأيديولوجيا المهيمنة.

ولا يقتصر هذا الخطاب العلني على الخاضعين فقط، فالطبقات الحاكمة أيضًا تستخدم خطابها العلني المعتمد بشكل كلي على أيديولوجياتها المهيمنة في أحاديثها في المحافل الكبرى التي تسعى فيها لإثبات خيرية أيديولوجيتها وجدارتها بقيادة المجتمع، وهذا الخطاب العلني للحاكمين يختلف عن خطابهم المستتر بين أصدقائهم وأقربائهم وأسرهم.

2- الخطاب المستتر: وهو الذي يتضمن كل أشكال الاعتراض والتباعد والثورة والتعبير عن مظالم الجماعات الخاضعة تجاه المسيطرين والحكام، وهذا الخطاب لا يتفوه به الخاضعون إلا في مساحاتهم الآمنة في أسرهم أو مع أصدقائهم تجنبًا للتعرض للأذى، ولأن ظهور هذا الخطاب للعلن ينتج عنه غالبًا حملات قمع كبيرة، ويدعى سكوت أن هذا الخطاب المستتر يزداد ثراء كلما ازداد قمع السلطة وبطشها وظلمها للخاضعين.

وعلى ذات الشاكلة يكون الخطاب المستتر للطبقات الحاكمة؛ فتعاملها مع الخاضعين في المساحات المغلقة غير العلنية لا يلتزم بالضرورة بالقيم والأخلاقيات التي تدعيها الأيديولوجيا المهيمنة، وكذلك الحال في الأحاديث الخاصة بين المنتمين للطبقات المسيطرة ونظراتهم للخاضعين والتي تختلف بشكل كبير عما قد يدعونه في حفلاتهم ومحافلهم العامة.

3- التمويه والاستيهام: هو مساحة ثالثة تقع بين الخطاب العلني والخطاب المستتر، وهذا النمط من الخطاب هو الذي يهتم به تحليل سكوت بصفة رئيسية وهو الذي يسعى جيمس سكوت إلى رصده وتحليله، ويقتصر استخدام هذا النوع من الخطاب بالأساس على الطبقات الخاضعة التي تلجأ أحيانًا لاستخدام تعبيرات مزدوجة تستهدف تعبيرًا غير صريح عن التملل دون أن يتعرض الخاضعون للأذى، ومن الأمثلة التي يقدمها سكوت على

ذلك الشائعات والنكات والأغاني والطقوس والكلمات المضمرة والأقوال المأثورة، أما الاستيهام وتخيل أحداث غير حقيقية ينتقم فيها الخاضعون من أفراد الطبقة الحاكمة.

4- خطاب الثورة: ويتمثل هذا النمط من الخطاب في تحول الخطاب المستتر الغاضب والصريح إلى خطاب علني في لحظات تاريخية محددة تتدلع فيها حركات التمرد والثورات الكبرى ويتجه الخاضعون إلى التحدي الواضح والصريح للمسيطرين.⁴⁰

ومن المفاهيم الأخرى المتفرعة عن مفهوم السيطرة عند جيمس سكوت: مفهوم «السياسة التحتية»، وهو من المفاهيم المهمة في أطروحة جيمس سكوت؛ حيث يصف هذا المفهوم بـ«النضال الحذر الذي تشنه الجماعات المحكومة يوميًا كالأشعة ما دون الحمراء وراء الطرف المرئي في الطيف»؛ فهي إذا ممارسات وسلوكيات سياسية غير مرئية تُمثل أحد أهم أشكال مقاومة الجماعات الخاضعة لأشكال السيطرة الواقعة عليها، ومن ثم فإن الخطاب المستتر للجماعات الخاضعة وممارسات التمويه والاستيهام وغيرها تدخل كلها في إطار السياسة التحتية بالمعنى الذي قصده جيمس سكوت.⁴¹

ومن هذه المفاهيم المتفرعة عن مفهوم السيطرة أيضًا مفاهيم «الجماعة المسيطرة»، و«الجماعات الخاضعة»؛ حيث يدور تحليله حول أشكال الصراع والسيطرة والخضوع بين هاتين الفئتين، ويرى سكوت أن العلاقة بين النخب المسيطرة والمحكومين هي في أحد وجوهها نضال مادي يواصل فيه الطرفان البحث باستمرار عن نقاط ضعف الخصوم واستغلالها لتحقيق المنافع الممكنة⁴²؛ وكذلك يستخدم سكوت مفهوم «التمثيل» باعتباره أسلوب اضطراري يلجأ إليه الخاضعون في التعامل مع المسيطرين؛ حيث يلجأون إلى تصنع التبجيل والحب والتودد لهؤلاء الحكام وتنفيذ كل طلباتهم بنوع من الرضى والقبول مع إضمار الكراهية وعدم الاكتراث بالمصالح الحقيقية لهؤلاء المسيطرين، بل وتمنى النعمة لهم والدعاء عليهم والفرح لمصائبهم، ويرى أن مفهوم التمثيل يقترن

⁴⁰ جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة..، مرجع سابق، ص 34 - 36.

⁴¹ المرجع السابق، ص 36 - 38، 217، 218.

⁴² المرجع السابق، ص 218.

بعلاقة عكسية مع حيابة السلطة والنفوذ؛ فكلما حاز المرء قدرًا أكبر من السلطة كلما كان أكثر قدرة على الإهمال في تصرفاته والتعامل بلامبالاة مع الآخرين وعدم مراقبة ذاته أو الحرص على التقرب من الآخرين أو التودد لهم، أما التواضع والاكتراث فهو من سمات صاحب السلطة المهددة أو من صفات الخاضعين؛ فالسلطة تعني أن صاحبها ليس مضطرًا للتمثيل.⁴³

خامسًا: تراتبية المفاهيم عند كلا المفكرين

مفهوم العصبيية هو وحدة التحليل الأساسية للأطروحات السياسية عند ابن خلدون؛ إذ يتمتع هذا المفهوم كما قدمه ابن خلدون بقدرة هائلة على احتواء وتفسير المفاهيم الأخرى المرتبطة بالظاهرة السياسية بل ويُمكن إرجاع كل هذه المفاهيم إليه ويُمكن استخدامه بدلًا منها في بعض الأحيان، خاصة مفهوم القوة الذي يُعد من أكثر المفاهيم مركزية في تحليل الظواهر السياسية بشكل عام؛ فعلى سبيل المثال تعتبر العصبيية دليلًا على قوة الدولة أو القبيلة وتُشرف الدولة على الهرم والزوال بانحلال عصبيتها وتراجعها.

ومع هذا فإن ثمة مفهوم أكثر محورية بالنظر إلى مجمل الإنتاج النظري لابن خلدون وهو مفهوم «العمران»، أو «الاجتماع الإنساني»، إذ يُعد هذا المفهوم هو الأكثر شمولًا للمفاهيم والأطروحات النظرية لابن خلدون، ومع هذا فهو لا يتمتع بذات القدرة التحليلية لعلاقات السلطة في المجتمع كتلك التي يتمتع بها مفهوم العصبيية.

أما مفهوم السيطرة عند جيمس سكوت فهو كذلك يتمتع بالمكانة المركزية الكبرى في الطرح النظري الذي يُقدمه سكوت لعلاقات القوة داخل المجتمع، وعليه تترتب باقي المفاهيم التي يستخدمها في أطروحته مثل الخطاب العلني والمستتر والثورة والتمرد والسياسة التحتية وغيرها من المفاهيم؛ إلا أنه يتقاسم هذه المكانة مع مفهوم المقاومة الذي يوليه سكوت اهتمامًا مركزيًا أيضًا في أطروحته؛ ويرجع ذلك لانطلاق تحليل سكوت أساسًا من دراسة الجماعات الخاضعة وسلوكها

⁴³المرجع السابق، ص 46 - 48 .

السياسي والاجتماعي، فهو بذلك يهتم بمقاومة السيطرة (من أسفل إلى أعلى)، أكثر من اهتمامه بالسيطرة ذاته (من أعلى إلى أسفل)؛ ولعل زاوية النظر هذه هي التي ميزت تحليل سكوت وفتحت له آفاقاً لنقد مفهوم الهيمنة أو السيطرة الأيديولوجية كما قدمها أنطونيو جرامشي -وهو النقد الذي أشارت إليه الدراسة آنفاً- حيث اهتم جرامشي بـ «السياسة الفوقية» إن جاز التعبير والمتمثلة في أجهزة الدولة الأيديولوجية وسياساتها الثقافية التي تسعى لتوكيد هيمنتها الأيديولوجية على الطبقات الخاضعة، بينما اهتم سكوت بالجماعات الخاضعة ودراساتها ودارت أطروحته حول ما أسماه بـ «السياسة التحتية»؛ ومن ثم فقد تمكن من تقديم رؤية أكثر تعمقاً لتأثير أيديولوجيا النخبة الحاكمة على المحكومين ومدى قابليتهم للإيمان بها وتصديق ادعاءاتها.

المبحث الثالث

تقييم ونقد لمفاهيم سكوت وابن خلدون عن القوة

في هذا المبحث الختامي تستعرض الدراسة بعض أوجه التقييم والنقد لمفهوم العصبية عند ابن خلدون، والسيطرة عند جيمس سكوت، وتتمثل معايير تقييم هذه المفاهيم وفق أسلوب التحليل النقدي للمفاهيم في استعراض امتداد وكثافة المفهوم من حيث شموله لمفاهيم أخرى وقدرته على التعبير عن ظواهر وتفاعلات اجتماعية متعددة، بالإضافة إلى فاعلية المفهوم في الواقع العملي وتجلياته السياسية والاجتماعية، كما تستعرض الدراسة بعض الإسهامات النقدية لباحثين ومفكرين آخرين للمفهومين محل البحث.

أولاً: تقييم ونقد مفهوم العصبية عند ابن خلدون

تتجلى بوضوح أهمية مفهوم العصبية خلال استعراضنا لأبرز ملامح النظرية الاجتماعية والسياسية عند ابن خلدون؛ فهو مفهوم له امتداد كبير يشمل مجموعة كبيرة من المفاهيم الأساسية في النظرية السياسية بشكل عام مثل القوة والقدرة والحكم والاستبداد والقهر والعقاب والحماية والمقاومة

والمدافعة والمطالبة والغلبة، واستخدمه ابن خلدون كوحدة تحليل أساسية لتحليل علاقات القوة داخل المجتمع ومدى قوة القبيلة وأهليتها لحيازة الملك وفي تفسير نشوء الدولة وسقوطها. وعلى الرغم من أن التجليات الواقعية لمفهوم العصبية مرتبطة بشكل كبير بالمجتمعات ما قبل الحديثة التي تُعد القبائل مكوناتها الرئيسية، كما أن شكل الدولة في الخيال الخلدوني مرتبط تمامًا بسياق العصور الوسطى والدول الإمبراطورية القديمة وتبتعد بشكل كبير عن شكل الدولة القومية الحديثة في العالم المعاصر، وهو ما يُمكن أن يدفع البعض للاعتقاد بأن مفهوم العصبية مفهوم تاريخي لا يُمكن استخدامه في دراسات السياسة المعاصرة، إلا أن مفهوم العصبية لا يزال قابلاً للاستخدام في تحليل الكثير من قوى وجماعات المجتمع خاصة القوى التقليدية منه التي لا تزال تتمتع بحضور وأهمية كبيرة في دول العالم الثالث بشكل خاص.

ومن الانتقادات التي يُمكن توجيهها لهذا المفهوم ولنظرية ابن خلدون السياسية بشكل عام الربط الكبير بين الملك والاستبداد، واعتبار ضعف استبداد الحاكم بدولته من مؤشرات ضعف سلطته وقرب زوال دولته؛ ففي هذا الطرح يظهر التأثير الكبير لابن خلدون بسياقه التاريخي الذي لم تعرف فيه المجتمعات مجالاً للحكم الديمقراطي أو التداول السلمي للسلطة وغيرها من المفاهيم المعاصرة للسياسة والحكم، ومع ذلك فإن التراث الإسلامي نفسه يشتمل على الكثير من القيم التي من شأنها التقليل من استبداد الحاكم بشكل يدعم قوة دولته ولا يُضعفها؛ خاصة مفهوم الشورى الذي يعتبره بعض المعاصرين يُمثل التعبير الإسلامي عن الديمقراطية؛ فكان بإمكان ابن خلدون ألا يكون أسيراً لسياقه الاجتماعي والظروف السياسية المُحيطة به وتوسيع خياله السياسي للحديث عن الشروط الموضوعية لقوة الدولة مع التزام حاكمها بالشورى وليس فقط بالاستبداد.

وقد اهتم بعض المفكرين المعاصرين بتوجيه النقد للأطروحات النظرية لابن خلدون وفي القلب منها مفهومه عن العصبية؛ ومن هؤلاء طه حسين الذي انتقد إيلاء ابن خلدون أهمية كبيرة للعصبية القبلية واعتبارها من الفضائل خلافاً لأحد أهم مبادئ الإسلام والمتمثل في السعي لإلغاء هذه العصبية والإنكار على أولئك المتباهين بأنسابهم وعصبياتهم والسعي لدمج جميع الشعوب

في أمة واحدة يكون شعارها الإيمان بالله وبنبيه، ويرى أن ابن خلدون عمل على تطويع الآيات والأسانيد الدينية لإثبات نظريته عن العصبية ومن أجل مواجهة هذه المعضلة الأخلاقية ولئلا يُتهم بالابتداع، وهو ما أسفر عن تفسيرات دينية خاطئة -في رأي طه حسين- لبعض النصوص الدينية التي استخدمها ابن خلدون في بنائه للحجج الدينية حول فكرة العصبية؛ ومثال ذلك استدلاله بإحدى الآيات في سورة يوسف والتي تقول: «قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون»؛ والمعنى الذي استنتجه ابن خلدون من هذه الآية أنه لا يُتوهم الاعتداء على أحد مع وجود العصبية له؛ بينما يسخر طه حسين من هذا التفسير الخلدوني للآية الكريمة ويتهم ابن خلدون بالتلاعب بالكلمات ليثبت المعنى الذي يقصده «لأن كلمة عصبية المشتقة من المصدر الذي اشتقت منه العصبية أي التضامن لا تدل على نفس المعنى وإنما تدل على الجماعة أو الشُرذمة ليس غير، والقرآن لا يريد شيئاً آخر سوى الذئب لا يمكن أن يأكل يوسف ما دما نحيمه ونحن جماعة، وثانياً لأن القرآن يريد هنا أن يقص الحيلة التي دبرها أخوة يوسف لحمل أبيهم على أن يسمح ليوسف بالذهاب معهم، ونحن نعرف أنهم كانوا يضمرون قتله، ومع ذلك فإن ابن خلدون قد خدع بذلك الدهاء المتدينين من أبناء عصره إذ لا نعلم أنه اتهم بالابتداع قط».⁴⁴

كما انتقد طه حسين اعتبار ابن خلدون دفع القبيلة للضرائب كأحد أسباب وعوامل المذلة والانكسار وضعف العصبية؛ حيث يقرر طه حسين حقيقة أن القبائل البدوية عند العرب وشمال إفريقيا والتي اهتم ابن خلدون بدراستها كانت تعتبر بالفعل دفع الضريبة نوع من الذل غير المقبول، إلا أنه يُنكر على ابن خلدون تبرير هذا الإباء واعتباره ميزة ودليلاً على القوة ومدعاة للفخر وحثه على تأييد ذلك وتشجيعه، ويرى طه حسين أن هذا الإباء إنما هو خاص بالبدو نقيض للتحضر، كما يتعجب من تغليب ابن خلدون لحالته الذهنية المتأثرة بحياة القبائل البدوية التي عاش بينها وتأثر بها على الذهنية الإسلامية التي لم تعتبر قط لا في الكتب الفقهية ولا في الحياة العملية أن دفع الضرائب فرض مهين، بل إن المسلمين -خصوصاً في القرون الثلاثة الأولى- اعتبروا أن

⁴⁴ طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية.. تحليل ونقد، محمد عبدالله عنان (مترجم)، القاهرة، مكتبة الأسرة، 2006، ص 99، 100.

دفع الضرائب مشاركة في المشروعات العامة، وأن الضرائب ضرورية لقيام الدولة والدفاع عنها وبناء حضارتها.⁴⁵

ويُقدم مُحمد عابد الجابري تحليلاً نقدياً لمفهوم العصبية وعلاقته بقوة الدولة عند ابن خلدون، وهو لا يعيب على ابن خلدون توصيفه لواقع الدول والقبائل والعصبيات في السياق التاريخي الذي عايشه بقدر ما ينتقد هذا الواقع بذاته باستخدام تحليل ماركسي للاقتصاد السياسي للدولة-القبيلة وأنماط الإنتاج بداخلها، ويرى الجابري أن هذا النمط من الدول التي عرفت المجتمعات الإسلامية القديمة اعتمد على (اقتصاد الغزو)، وهو نمط اقتصادي استهلاكي يعتمد على الموارد الحربية من الغنائم الفئ والعشور وغيرها -وهي بالفعل الموارد التي يهتم الفقه الإسلامي بدراستها- وتوزيع هذه الموارد على احتياجات النُخبة الحاكمة، دون الاهتمام باستثمار هذه الموارد أو خلق مصادر جديدة للإنتاج؛ ومن ثم فهو يصف هذه الحضارة بالاستهلاكية، ويبرر بذلك الانفصال الكبير بين الدول الإسلامية (البنى الفوقية)، والمجتمعات التي تحكمها (البنى التحتية)، ويُقرر بأن السلطة السياسية في هذه المجتمعات ليست ناتجة عن السيطرة على قوى الإنتاج بل هي نتيجة للتلاحم العصبي الذي يُوَطّر سعي الجماعات البدوية المحرومة والمستقلة نحو أقصى السلطة وأوسع الامتيازات الناتجة عنها، وفي مقدمتها الثروة الجاهزة، وهذا في رأي الجابري هو المُلك الذي هو الغاية الكبرى التي ترمي إليها العصبية بحسب ابن خلدون؛ فالأموال في هذه الحضارة تُجمع لتُستهلك لا لتُستثمر، ويختص باستهلاكها أصحاب الدولة وأهل العصبية الحاكمة دون غيرهم، ومن ثم فهي «حضارة إستهلاكية فوقية أقيمت على اقتصاد رخو، على ثروة تُجمع وتُكوم مثل الرمال، تجمعها الرياح بسهولة، وتذروها العواصف بسهولة أكبر».⁴⁶

⁴⁵ المرجع السابق، ص 104، 105.

⁴⁶ محمدعابد الجابري، فكر ابن خلدون: العصبية والدولة. معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السادسة، 1994، ص 263-266.

ثانياً: تقييم ونقد مفهوم السيطرة عند جيمس سكوت

يشمل مفهوم السيطرة عند جيمس سكوت طيفاً واسعاً من المفاهيم المرتبطة بتحليل علاقات القوة داخل المجتمع، مثل مفهوم الهيمنة والمقاومة والخضوع والثورة والتمرد وغيرها من المفاهيم التي استعرضتها الدراسة آنفاً، وهو مفهوم له تجليات سياسية واجتماعية تمتد بامتداد التاريخ الإنساني بأكمله الذي هو تاريخ من سيطرة قوى معينة وإخضاع جماعات أخرى لسيطرتها وحكمها، فهو مفهوم شامل كثيف الامتداد جدير بإخضاعه لمناهج وأساليب التحليل النقدي للمفاهيم بكل تأكيد، وتكمن فريدة هذا المفهوم في رصده لأنماط من السلوك شائعة في كل المجتمعات الإنسانية تُمثل أشكالاً من المقاومة اليومية لعلاقات القوة ومحاولات السيطرة وفرض الهيمنة من الحاكمين على المحكومين؛ حيث يستشعر القارئ لتحليل سكوت أن ما يكشف عنه من أنماط السلوك هي ما يحياه بالفعل ويحمل عنه الكثير من الذكريات في حياته الواقعية.

وتواجه أطروحات سكوت ببعض الانتقادات؛ ومنها اعتبار السلوك المقاوم كرد فعل ميكانيكي متجدد واستبعاد كل فرص واحتمالات العلاقات التعاونية، خاصة أنه في بعض الأوقات تظهر حالات التماسك الداخلي في المجتمعات المنقسمة كشكل من أشكال التوحد والتضامن من أجل غاية اجتماعية أسمى، كما ينتقد آخرون أطروحة سكوت بسبب إهمالها للجانب الجماعي وتركيزها على أنماط المقاومة الفردية فحسب، ومن ثم إهماله للتساؤل بشأن الكيفية التي من الممكن أن تقسح بها المقاومة الطريق أمام أشكال أكبر من التنظيم الاجتماعي أو الحركة الاجتماعية؛ حيث يركز تحليل سكوت بالأساس على أشكال المقاومة الفردية والاستياء الفردي ضد السيطرة والتحكم مع إهمال التفكير بشأن متى تؤدي هذه الاستياءات الفردية منخفضة المستوى إلى التعبئة والعمل الجماعي ومتى ستبقى في إطار الاستياء الفردي.⁴⁷

ويجادل البعض بأن ميل سكوت لإضفاء الطابع النفسي على سلوكيات المقاومة وسرده لأنماط من السلوك غير القابلة للقياس التجريبي تجعل من الصعب إثبات هذه الأنماط من المقاومة

⁴⁷ Wing-Chung Ho, *James Scott's resistance/hegemony paradigm reconsidered*, Acta Politica (2011) 46, 43–45.

ودراستها، حيث تصبح المقاومة مجموعة من الأفعال الفردية التي لا يُمكن التعرف عليها إلا داخل ذاتية الفاعل فحسب.⁴⁸

ولا يتفق الباحث مع بعض هذه الانتقادات خاصة فيما يتعلق بغياب الجانب الجماعي من تحليل سكوت لأنماط المقاومة؛ ففي تحليله لأشكال السلوك اليومي للجماعات الخاضعة يتعرض سكوت لأنماط من المقاومة الجماعية لعلاقات السيطرة؛ مثل استبعاد الجماعات المحكومة ونبذها لأعضائها الساعين للتقرب إلى الجماعات المسيطرة ولو على حساب مصالح المحكومين واتفاقاتهم الصامتة.

ومع ذلك ثمة نقد آخر لمفهوم السيطرة عند جيمس سكوت يجدر بنا طرحه في هذا المقام، ويتعلق هذا النقد بالانطباع الذي يتكون لدى القارئ لتحليل سكوت لسلوك الجماعات الخاضعة بامتلاك هذه الجماعات لوعي طبقي واضح وقوي يجعلها مُدركة لما يقع عليها من ظلم وطغيان باعتباره مُنكر وواقع غير مقبول وليس وضعًا طبيعيًا، ويتأكد ذلك بنقد سكوت لمفهوم الهيمنة عند جرامشي وادعائه بأن الجماعات الخاضعة تمتلك من الخبرة العملية ما يُمكنها من اختراق الأيديولوجيا المهيمنة وعدم تصديق رواياتها، وهو أمر لا يتفق معه الباحث؛ إذ في الكثير من الأحيان يخضع المحكومون لرؤى وتصورات الحكّام عن أنفسهم وعن المحكومين ويعتقدونها بعد تنشئتهم عليها؛ فالعبودية والرقّ مثلاً في الأزمنة القديمة كانت أمرًا واقعيًا وطبيعيًا ولم يكن نظامًا مُستتكرًا بحد ذاته؛ ومن ثم فالكثير من مظاهر الظلم قد يقبلها المتضررون منها ويؤمنون بعِدالتها أيضًا.

خاتمة واستنتاجات

استهدفت هذه الدراسة التعمق في فهم ظاهرة القوة في المجتمعات الإنسانية عن طريق تحليل وتفكيك المفاهيم التي استخدمها الفكر السياسي والاجتماعي لتحليل هذه الظاهرة وتقديم أُطر

⁴⁸EIBD.

نظرية لتفسيرها، واهتمت الدراسة بالتركيز على إسهامين رئيسيين يمُثلان كلاً من: الثقافتين العربية والغربية والعصور الوسطى والعالم المعاصر، وهما إسهامي ابن خلدون وجيمس سكوت، وقد أسفر الجمع بين هذين الإسهامين وتحليل المفاهيم والأطروحات الخاصة بهما عن الكشف عن بعض ملامح التقارب والاختلاف بينهما فيما يتعلق بتحليل ظاهرة القوة في المجتمعات الإنسانية، وتسعى هذه الخاتمة إلى استعراض ما توصلت إليه الدراسة من أوجه للتقارب والاختلاف بين هذين الإسهامين.

فمن أبرز ملامح التقارب بين الإسهامين ما يطرحانه بشأن تأثير الخضوع وعلاقات القوة أو السيطرة على الجماعات الخاضعة والمحكومين، فبينما يقول ابن خلدون بأن الأمم الخاضعة يسرع إليها الفناء؛ حيث يقضي الخضوع على عصبيتها التي هي أساس قوتها، يرى سكوت أيضاً أن علاقات السيطرة تؤدي إلى أضرار كبيرة بالكرامة الشخصية للخاضعين وتُسفر في كثير من الأحيان عن تحويل توكيد الكرامة الشخصية إلى مخاطرة أو مجازفة أخلاقية، ولكن لا ينتهي سكوت إلى فناء الأمم الخاضعة وذهاب قوتها بشكل كامل، وإنما يؤكد أن هؤلاء الخاضعين يلجأون إلى الخطاب المستتر للتعبير عن غضبهم وإلى السياسة التحتية وممارسات الاستيهاام والتنمية لمقاومة علاقات السيطرة بشكل لا يجلب لهم الأذى.

ومن الإشارات المهمة التي يُقدمها ابن خلدون لفهم علاقات القوة أيضاً حديثه عن «الأحكام التأديبية والتعليمية»، ودور العقاب في إخضاع الأفراد لعلاقات السلطة وإضعاف بأسهم وعصبيتهم؛ حيث يرى أن المدارس والتنشئة التعليمية للأفراد تجعل الأفراد أكثر قابلية للتطوع والخضوع للآداب الحضرية اللازمة لتوكيد السلطة وطاعتها، وهو بذلك يقترب من مفهوم الهيمنة كما قدمه مفكرون معاصرون مثل جرامشي والذي استخدمه سكوت وقام بنقده في حديثه عن السيطرة الأيديولوجية للجماعات الحاكمة على المحكومين.

كما أن اهتمام ابن خلدون بأحوال البداوة والقبائل البدوية المتوحشة ومراحل تطور عصبيتها وصولاً إلى دخولها مرحلة الحضارة وحيازتها للملك ثم تراجع عصبيتها وقوتها وانهايار دولتها، يقترب من اهتمام جيمس سكوت بالمجتمعات الريفية وأنماط مقاومتها للسيطرة المفروضة عليها من خارجها، مع اختلافات مهمة في تحليل قوة هذه الجماعات بين ابن خلدون وسكوت؛ فبينما يُركز ابن خلدون على دراسة الفعل الجماعي المُنظم للقبائل التي تجتمع بعصبيتها نحو الحماية والمدافعة والتوسع وحيازة الملك بغزو غيرها من القبائل الأضعف منها وصولاً إلى تكوينها للدولة أو فرض مكانتها على الدولة القائمة وحيازة المزيد من الامتيازات، يهتم جيمس سكوت بأنماط أخرى من المقاومة أكثر ارتباطاً بالسلوك اليومي الفردي أو الجماعي غير المنظم بالضرورة لأعضاء الجماعات الخاضعة، وهي ممارسات الخطاب المستتر والسياسة التحتية التي لا تُمثل بأي حال من الأحوال أي رد فعل مُنظم يُمكنه بشكل عاجل تغيير موازين القوى بين المسيطرين والمحكومين. وأخيراً، ثمة طابع سلبي لمفهوم السيطرة عند جيمس سكوت مقارنة بالطابع الإيجابي لمفهوم العصبية عند ابن خلدون، فبينما يتناول جيمس سكوت مفهوم السيطرة بصفته نوعاً من الطغيان والظلم الذي يدفع الخاضعين لمقاومته بأنماط المقاومة المختلفة التي أوردتها في أطروحته، يعتبر ابن خلدون أن العصبية من الفضائل الكبرى في المجتمعات الإنسانية وأنها هي التي تحفظ للقبيلة وللدولة قوتها وتُعبّر عن بأس أفرادها وأنفتهم، وبالتالي يُمكن القول بأن مفهوم ابن خلدون للعصبية يقترب من مفهوم حنا أرندت عن القوة التي هي فعل جماعي مُنظم للقيام بعمل إبداعي جديد، بينما يقترب مفهوم سكوت عن السيطرة من مفهوم فوكو عن علاقات القوة وتأثيرها وحضورها اليومي في كافة المساحات الاجتماعية والشخصية لأفراد الجماعات الخاضعة.

قائمة المراجع

- المراجع باللغة العربية:

الكتب:

- 1- جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة.. كيف يهمس المحكومون من وراء ظهر الحكام، إبراهيم العريس ومخايل خوري (مترجمان)، دار الساقى.
- 2- ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، عبدالله محمد الدرويش (محقق)، دمشق، دار يعرب، الطبعة الأولى، 2004.
- 3- ابن خلدون، الخبر عن دولة التتر.. تاريخ المغول من كتاب العبر، أحمد عمراني (محقق)، بيروت، دار الفارابي، الطبعة الأولى، 2013.
- 4- عبدالرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2004.
- 5- ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، ابن خلدون ورسالته للقضاة، فؤاد عبدالمنعم أحمد (محقق)، الرياض، دار الوطن، الطبعة الأولى، 1417 هـ.
- 6- طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية.. تحليل ونقد، محمد عبدالله عنان (مترجم)، القاهرة، مكتبة الأسرة، 2006.
- 7- محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون: العصبية والدولة.. معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السادسة، 1994.
- 8- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 1452 هـ / 2004 م.

مواقع الإنترنت:

1 - جيمس سكوت، أن تنظر كأنك دولة، أسامة غاوجي (مترجم)، متراس، 9 فبراير 2019.

<https://bit.ly/3aHYCwv>

2 - قاموس المعاني <https://bit.ly/3p0gTdi>.

المراجع باللغة الإنجليزية:

1-James C. Scott, **Weapons of the weak every day forms of peasant resistance**, London, Yale university press, 1985.

2-James C. Scott, **Domination and the arts of resistance .. hidden transcripts**, Yale university press, New haven and London, 1990

3- Wing-Chung Ho, **James Scott's resistance/hegemony paradigm reconsidered**, Acta Politica (2011) 46.

4-Dictionary.com. <https://www.dictionary.com/browse/power?s=t>

5-James Scott, Department of political science, Yale University.

<https://politicalscience.yale.edu/people/james-scott>